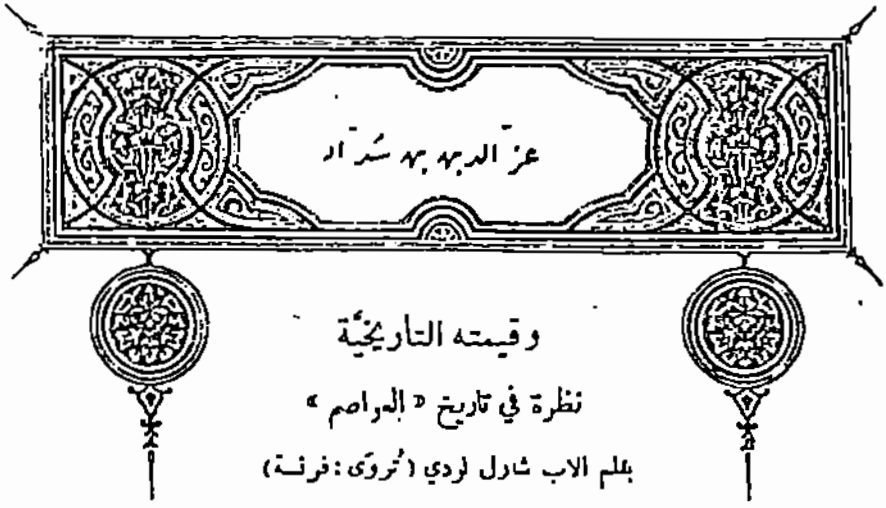

وقيمته التاريخيّة

نظرة في تاريخ « العواصم »

بقلم الاب شارل لودي (تُروى: فرنسة)

يشكر قراء « المشرق » الكرام ما نشرناه عن ابن شدّاد و«اعلاقه الخطيرة» في تاريخ « العواصم »[1] . وقد رأينا ان نتمّ البحث بهذا المقال ، فنضع تلك النصوص في مكانها التاريخي . ولهذا دُفعنا الى ترتيب هذه الشروح والمعلومات على اربعة اقسام :

١ً – الزحفات البيزنطية على سورية من السنة ٩٦٥ الى السنة ٩٦٩
٢ً – حالة سورية السياسية على عهد الفتح الصليبي .
٣ً – وقائع نور الدين في سورية الشمالية .
٤ً – هجمات ليون الثاني الارمني على انطاكية .

الزحفات البيزنطية

يتبع ابن شدّاد ، في هذا الموضوع ، معلومات المؤرّخ كمال الدين[2] حتى انه لا يكاد يحيد عنها . على اننا رأينا اعادة النظر في هجمات البيزنطيين على سورية ، والتحقيق في تأريخها ، من السنة ٩٦٥ الى سنة ٩٦٩ . ولاسيما ان التواريخ التي فرضها شلومبرجر[3] بحاجة الى مزيد تدقيق ، فضلًا عن كونه تأثما

---

١) اطلب مشرق هذه السنة ، ص ١٦١ – ٢٢٤

٢) قابل بما ورد في G. W. Freytag, *Geschichte der Handeniden*, in *ZDMG*, XI, (1857) p. 177 sq. et M. Canard, *Sayf al Dawla*, Paris-Alger, 1934.

٣) G. Schlumberger, *Un Empereur Byzantin au X^e siècle, Nicéphore*

يذكر المصادر التي استند اليها.

السنة ٣٥٤ (٧ كانون الثاني – ٢٨ كانون الاول ٩٦٥)

في ١٥ شعبان (١٦ آب) خضع رشيق النسيمي ، حاكم طرسوس من قبل الحمدانيين ، مستسلماً للروم ، فاصبح الامبراطور نقفور سيّدًا لتلك المدينة . وتراجع رشيق الى انطاكية[1] . فقام ابن الاهوازي بهياج الثورة في انطاكية ، على ما رواه ابن شدّاد[2] . ولم يمض شهران على وصول رشيق الى انطاكية (شوّال = ٣٠ ايلول - ٢٩ تشرين الاول) حتى كان سيد المدينة.

وفي اول ذي القعدة (٢٩ تشرين الاول) دخل رشيق حلب[3] فخضعت له الا قلعتها . وكان فيها قرغويه يحاكمها لسيف الدولة ، فحاصرها رشيق ثلاثة اشهر وعشرة ايام.

السنة ٣٥٥ (٢٨ كانون الاول ٩٦٥–١٧ كانون الاول ٩٦٦)

في ١٠ صفر (٦ شباط) ارسل سيف الدولة جيشاً بقيادة الخادم بشرة ، فخلّص حلب من يد رشيق . فلجأ هذا الى القرار ، وبينما هو هارب ، سقط عن فرسه ، فقُتل .

وقد لحق قرغويه بالمنهزمين حتى ابواب انطاكية . وكان دِزْبَر قد تولى فيها الحكم ، فخرج الى قرغويه . وهزمه بدوره حتى حلب . ثم دخل دِزْبَر حلب في جمادى الاولى (٢٥ نيسان – ٢٥ ايار) . ويزيد فريتاغ ان دِزْبَر دخل قلعة حلب. وهو امر صعب تحقيقه ، لان المؤلف لا يشير الى النصّ العربي الذي استند اليه في هذا الاستنتاج . وعلى كل فان استيلاء دِزْبَر على قلعة حلب يظهر لنا مشكوكاً فيه لسببين : اولًا ان ابن شدّاد يقول عن دِزْبَر انه

Phocas, Paris, 1890 et 1923. وهذه الطبعة الثانية لا تختلف عن الاولى الا بحذف الرسوم والصور ، وهي التي نشير اليها.

١) راجع المؤرخ يحيى في *P. O., XVIII*, 796

٢) المشرق المذكور ص ١٨٩–١٩٠ ؛ وراجع ابن الاثير ٨ : ٤١٥–٤١٦ ، وهو يجمع هذه الحوادث كلها في سنة واحدة.

٣) Freytag, *Gesch. der Hamdaniden*, *ZDMG*, XI, 1857, p. 211

استولى على « البلد » لا على « القلعة » ، وهو يستند الى كمال الدين في كل هذا القسم من تاريخه ، كما قدّمنا ، ومن السهل المقارنة بين قوله والنصّ الاصلي[1] . ولا يخفى ان قلعة حلب تكوّن مدينة في قلب المدينة فيمكنها ان تقاوم الفاتح مدة طويلة ، فليس من اللازم ان من يحتلّ المدينة يدخل القلعة ايضاً ، وهو ما حدث لرشيق عندما فتح حلب . وثانياً ان المؤرّخ يحيى يقول عن دِزْبَر انه اتبع آثار قَرْغويه حتى حلب . ثم ان جيوش قرغويه ردّته عنها ، فرجع الى انطاكية[2] . ولا يخفى ان جيوش قرغويه لم تكن لتقاوم دِزْبَر وتردّه لو كانت القلعة قد سقطت في يده . ولا شكّ في ان قرغويه كان سيد المدينة ، عندما اتى سيف الدولة حلب ، فقضى فيها ليلةً بعد ان تبادل الاسرى ونقفور ، ملك الروم (١ رجب ٣٥٥ = ٢٣ حزيران ٩٦٦)[3] .

على ان ابن شدّاد يزيد الحادث غموضاً اذ يذكر ان سيف الدولة رفع دِزْبَر عن حلب في شهر صفر ٣٥٦ (١٦ كانون الثاني — ١٤ شباط ٩٦٧) . والظاهر انه يخلط بين حوادث صفر هذا وحوادث صفر السابق سنة ٣٥٥ ، وفيها خلّص جيش سيف الدولة حلب من رشيق النسيمي ، على نحو ما تقدّم . ولا يبقى في الامر من شكّ ، اذا عرفنا ان سيف الدولة لم يحتج الى تخليص حلب في صفر ٣٥٦ ، لانه كان فيها ، بينا كان نقفور يقوم بزحفته على سورية (شوال - ذي القعدة ٣٥٦ = ايلول - تشرين الاول ٩٦٦)[4] . ثم خرج منها الى

---

١) اطلب Freytay, *op. cit.*, 212 والنص ، ص ٤٤ ؛ ولا يخفى ان فريتاغ يكتب تاريخه مستنداً ايضاً الى كمال الدين .

٢) يحيى *P. O*, XVIII, 793

٣) يحيى : المحل المذكور ، وقابل بقول Schlumberger, *op. cit.*, p. 428 . ويمكن الفرض ان اقتراب سيف الدولة من حلب دفع دِزْبَر الى رفع الحصار عن قلعتها ، والتراجع من المدينة .

٤) وقد يكون شلومبرجر جاهلاً نصّ المؤرّخ يحيى عندما كتب (ص ٤٢٦) « ان المناوشات مع الروم عادت حالاً (بعد رجوع سيف الدولة الى حلب في تموز ٩٦٦) وانه يجب ان نفرض حملة جديدة قام بها نقفور ، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً واضحاً . » اما يحيى فيقول (٨٠٥) : ان نقفور سار من سُتيْتة ، حيث حصل تبادل الاسرى ، الى آمد ،

شيزر . ربما لم يتوفق ابن شدّاد في ابتعاده عن نصّ كمال الدين .

اما زمن تخليص حلب للمرّة الثانية فيجب ان يوافق اعادة السلطة الحمدانية على انطاكية ، وتفصيل ذلك ان دزبر ، بعد ان تراجع عن حلب لاقتراب سيف الدولة منها ، عاد طامعاً فيها ، ولحق جيش سيف الدولة عندما ابتعد هذا عن المدينة ؛ حتى التقى الجيشان في بالس . فكُسر جيش دزبر ، وأُخذ اسيراً هو وابن الاهوازي ؛ فقُتلا . واعطى سيف الدولة حكم انطاكية لخادمه تقي الدين[1] .

السنة ٣٥٦ (١٧ كانون الاول ٩٦٦ – ٧ كانون الاول ٩٦٧)

في شهر صفر (١٦ كانون الثاني – ١٤ شباط ٩٦٧) مرض سيف الدولة فنقل من شيزر الى حلب حيث مات . فخلفه ابنه ابو المعالي سعد الدولة شريف[2] .

على ان وفاة سيف الدولة اعادت الاضطرابات الى سورية . وقد كان عامله على انطاكية ، تقي الدين ، رافق جثمانه الى ميّافارقين ، فانتقض اهل انطاكية على الحمدانيين ونادوا بعلوش الكردي حاكماً عليهم . وكان في انطاكية كذلك الخراسانيون الذين اتوا غازين بلاد الروم ؛ ويظهر انهم لم يتركوا المدينة قبل حزيران لانهم نراهم فيها في ١٠ جمادى (٢٣ ايار) . ثم تقدّموا منتصرين في مناطق قليقية . وهو ما دفع نقفور الى ان يتجه اليهم بطرس الستراتوبيدارك ، وهو الذي يسمّيه ابن شدّاد الاطربازي ، فكسر الخراسانيين ، ولا نعلم باي شهر[3] .

في رجب (١٢ حزيران – ١٢ تموز) رجع ابو المعالي من ميّافارقين ، فدخل

فدارا ، ومنها الى نصيبين . ثم رجع فجأة الى الشرق ووضع الحصار على منبج (١٨ شوال ٣٥٥ = ٧ تشرين الاول ٩٦٦) ودخل آسية الصغرى ساراً بالس ، وارتاح ، وتيزين وانطاكية . قابل بما يرويه فريتاغ (ص ٢١٢ ، وهو يقرأ : « تترين » بدل « تيزين » .

١) يحيى ، ٨٠٥

٢) يحيى ، ٨٠٧

٣) يحيى ، ٨٠٧ ، ٨٠٦ ، ٨١٣-٨١٤

حلب دخولًا حافلًا[1].

السنة ٣٥٧ (٧ كانون الاول ٩٦٧ — ٢٥ تشرين الثاني ٩٦٨)

في ربيع الثاني (٥ اذار - ٣ نيسان) انتهت المناوشات بين قرغويه وابي فراس بمقتل الشاعر في جوار حمص[2].

في ذي القعدة (٢٠ ايلول - ٢٩ تشرين الاول) دخل نقفور سورية غازياً فاكتسح وادي العاصي حتى حمص . وهبط منها على طرابلس ، ثم صار على الساحل حتى انطاكية . ولعله كان لا يزال في سورية في اوائل السنة ٣٥٨

السنة ٣٥٨ (٢٥ تشرين الثاني ٩٦٨ — ١٤ تشرين الثاني ٩٦٩)

في محرّم (٢٥ تشرين الثاني — ٢٤ كانون الاول) اخذ قرغويه يرمي الى الاستقلال بحكم حلب ، فاستفاد من بعض الاشاعات المقلقة ، وابعد ابا المعالي عن حلب مقنعاً اياه بان نقفور سوف يقضي الشتاء في سورية ، ولا شك في انه يحاصر حلب ان لم يسرع صاحبها فيلجأ الى مكان امين . فاسرع ابو المعالي الى الاتجاه نحو ميافارقين . ولكنه لم يكد يصل الى بالس ، على الطريق ، حتى تناول من قرغويه خبراً يعلنه فيه بانتقاضه عليه ، وباستقلاله في حلب[3] . اما نقفور فلم يقض ذاك الشتاء في سورية ؛ ولكنه استعد لغزوة الربيع ، فعبر بغراس ، ونقل اهل بوقا الى انطاكية ، وجهّز جيوشه للحرب . وقضى الطربازي شتاءه في تليقية[4] . على ان نقفور لم يتمكن من القيام بغزوة الربيع ، لانه اضطر الى البقاء في بيزنطية ، وكان قد زاد شغب السكان عليه حتى اودى به في آخر السنة نفسها .

في رمضان (١٩ تموز — ١٧ آب) لا تزال المنازعات سائدة في سورية : ابو المعالي جمع رجاله واتى ، مستفيداً من الصيف ، فحاصر حلب مدة ثلاثة اشهر[5] . في انطاكية ، ثار الزُعَيلي الاسود ، على مضيفه الحاكم علوش الكردي

---

١) Freytag, *op. cit.*, p. 226 ٢) ابن الاثير ٨ : ٤٢٤ Freytag, *op. cit.*, p. 227

٣) ابن الاثير ٨ : ٤٢٤ ؛ يحيى ، ٨١٥ ؛ Freytag, 228

٤) راجع « المشرق » ص ١٦١ ؛ Cedrenus (Bonn, II, 364-365) -

٥) يحيى ٨٢١—٨٢٢

فتتله ، وضبط حكم المدينة[1] .

اما قرغويه فلم يرَ وسيلةً للخروج من موقفه الحرج الّا باستدعاء الطرابازي ، ووعده باعطائه قسماً من الاراضي . وكان اهل انطاكية قد ارسلوا الى حصن بغراس يعلمون صاحبه بما يسود مدينتهم من الفوضى[2] . فمشى الطرابازي على حلب مارًّا ببغراس . فاعلمه صاحبه مخائيل البرجي بحوادث انطاكية . ولم يلبثا ان قرّرا المسير اليها اولًا . فدخلاها معاً في ١٣ ذي الحجة ، (٢٨ تشرين الاول ٩٦٩)[3] ، على ما رواه ابن شدّاد ، في ذاك الوصف الشائق[4] .

ومن هناك سار الطرابازي على حلب . فانسحب ابو المعالي الى حمص . وشمل الفرح قرغويه . الا ان فرحه لم يطل ، لان الطرابازي اخذ يحاصرة المدينة لحسابه هو . وبعد ٢٧ يوماً ، سلّمت حلب في صفر (١٤ كانون الاول ٩٦٩ — ١١ كانون الثاني ٩٧٠) فعُقدت معاهدة بين الغالب والمغلوب . وهي معاهدة آية في الاتفاقات السياسية ، وكل ما فيها آئل لمصلحة البيزنطيين . وقد اكثر المؤلفون من وصفها ودرسها ، فلم نرَ حاجة للرجوع اليها[5] .

---

١) كان الرُّقَيلي مهاجرًا من طرسوس ، لجأ اولًا الى مصر ، ثم الى انطاكية ، فاشترك ببعض الغزوات على بلاد الروم . ثم دخل على علوش مسلّماً ، فهجم عليه وقتله . فتفرّق رجال علوش ، وكانوا كثيرين ، فاستقلّ الرُّقَيلي بحكم المدينة .

٢) « المشرق » ، ص ١٩١

٣) هو التاريخ الذي يذكره يحيى (٨٢٢) وابن شدّاد . ولا اعلم اي قيمة لما يسرده Cedrenus II, 366 ، وهو يغلط غلطاً تاريخياً يجعله فتح انطاكية في السنة الثالثة لتقفور (اذار ٩٦٦ — اذار ٩٦٧) . وقد تعوّد مثل هذا الغلط . اذ لم يجمع معاً (٢ : ٣٦٤) غزوتين من غزوات تقفور (في السنة ٩٦٦ والسنة ٩٦٨) فيجعلهما غزوةً واحدة ؟ وهو يصف فتح انطاكية على الصورة الآتية فيقول : ان مخايل البرجي حاول وحده دخول المدينة مستيناً بحامية بغراس القليلة . فاحتلّ البرجين . ولكنه حوصر فيهما . ثم ارسل الى الاطرابازي (ولا نعلم باي طريقة ؟) فاخبره بموقفه الحرج ، فاتى هذا الى موقته بعد ثلاثة ايام ، فخلّصه ، ودخلا المدينة . ولا يخفى ان هذه الرواية يجهلها مؤرخو العرب كافة (ابن الاثير ٨ : ٤٤٤ ؛ ابو المحاسن ٢ : ٤٠٢ ؛ كمال الدين في Freytag, *Gesch.. ZDMG*, XI, 230) كما يجهلها لاون الشماس ، معاصر تلك الحوادث (راجع Leo Diaconus IV (Bonn) 70 sq.)

٤) نُشر نصّ هذه المعاهدة في G. W. Freytag, *Regnum Saabd al Daulae in Optido Halebo*, Bonn, 1820. p. 9-14 ; M. Canard, *Sayf al Daula*, p. 419-424

سورية على عهد الفتح الصليبي

ان الانقسامات المتتابعة والمطّردة بين امراء سورية التي ساعدت البيزنطيين في حملاتهم على انطاكية ظلّت هي هي حتى عهد الصليبيين ، فساعدت هؤلاء في حروبهم وفتوحاتهم . وهذه ، في ما يلي ، حالة سورية ، عندما تقدّم منها الصليبيون ، في تشرين الاول ١٠٩٧

١ – السلاجقة وحلفاؤهم المعروفون بالاتابك

كانوا سادة الشمال والساحل حتى اللاذقية ، وسادة المنطقة الداخلية حتى دمشق . ولا يفيد هذا انهم كانوا على حسن تفاهم بعضهم مع البعض . فهذا رضوان بن تتش ، صاحب حلب ، يستعين بسُكمان بن ارتق ، صاحب سروج ، فيهجم على اخيه دُقاق بن تتش ، صاحب دمشق ، ويكسره عند اسوار تِلْسرين . وكان دقاق يحلم باخذ حلب مستعيناً بياغي سيان ، صاحب انطاكية[1] .

وهناك خلاف آخر بين رضوان ورجاله انفسهم . من ذلك انه ، على اثر موت تتش سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) ، هرب الى حلب احد رجال شحنته السابقين في بغداد ، واسمه يوسف بن ابق ، فلجأ الى جناح الدولة ، احد قوّاد رضوان . وكان في حلب رجل اسمه بجنّ ، وهو قائد الاحداث ، ولم يكن يخلو من طمع في الاستقلال بحكم المدينة ، فاتهم يوسف بن ابق بكونه على اتصال بياغي سيان ، وزيّن لجناح الدولة ان يقتله . فاذن جناح الدولة بقتله . ثم اوهم بجنّ جناح الدولة بان حياته على خطر في حلب . فسار الى حمص واحتلّها . وكان رضوان قد ضجر من اعمال بجنّ ، فقصد لتأديبه . فنشبت بين الاثنين معركة دارت رحاها على بجنّ فقُتل وكسر جيشه[2] . فبقي على رضوان ان

وقد عاد فريتاغ الى ذكرها في *Gesch. der Hamd.* (ص ٢٢٤) وذكرها كذلك Schlumberger, *Nicéphore Phocas* (ص ٢٣٠)

١) ابن الاثير : في السنة ٤٩٠ (١٩ كانون الاول ١٠٩٦ – ٩ كانون الاول ١٠٩٧) ١٠ : ١٨٣–١٨٤ ؛ وقابل : Weil, *Gesch. der Chalifen*, III, 150 sq.

٢) ابن الاثير ١٠ : ١٧٤

يتخلّص من رجال يوسف بن ابق - ولما عرف ياغي سيان بهرب جناح الدولة ، اخذ يتقرب من رضوان[1] ، فتهادنا على ان يساعده رضوان ، اذا ما هاجمه الافرنج في انطاكية[2] . ولكن رضوان لم يرضَ البتّة بان يدخل في الحِلف الاسلامي على الفرنجة ، اي بين الامراء المسلمين المتّحدين على محاربتهم ، وذلك ان اعداءه كانوا كثيرين في ذاك الحلف . فكان من نتائج الامر ان تدخّله بشؤون كربغا احدث انشقاقاً في جيوش الامراء المرابطة امام انطاكية ؛ ولم تكن صداقته لسكمان بن ارتق ، المحارب الى جنب دقاق ، لتحسّن صلاته بهذا الامير[3] .

ب – الفاطميون

كان الفاطميون اصحاب السيادة في المناطق الجنوبية . وبعد ان ردّهم السلاجقة مدّةً ، عادوا فاسترجعوا اورشليم[4] . وظلّ الساحل في ايديهم حتى طرابلس[5] . فلم يكن يسوءهم ان يشهدوا ضعف السلطة السلجوقية ، حتى

١) ابن الاثير ١٠ : ١٨٣–١٨٤

٢) راجع كمال الدين (*H. Or.* III, 578) : « وخرج في المحرّم في سنة إحدى وتسعين واربع مائة نحو ثلثين الفاً من الفرنج الى اعمال المسلمين ببلد حلب فافسدوا وخربوا وقتلوا من وجدوا . وكان قد وصل الملك دقاق واتابك (طنتكين) ومعهما جناح الدولة (وهم اعداء رضوان) ونزلوا ارض شيزر ومعهم ابن ياغي سيان وهم سايرون لانجاد ايه . » ثم يذكر المؤرخ ثلاثي قسم من هذا الجيش بالفرنجة ، وتراجع هؤلاء نحو الشمال . ثم عودة هذا الجيش الدمشقي . بعد ذلك يظهر رضوان ومعه سكمان بن ارتق فيزحف على الافرنج زحفة لم ينجح فيها .

٣) يظهر من رواية كمال الدين (ص ٥٧٩) ان سكمان انتقل من محالفة رضوان الى محالفة اخيه دقاق ، وذلك بالتحاقه بالجيش المتحد . على اني لا ارى في هذا الحادث خروجاً على المحالفة الاولى ، فان سكمان كان اضعف من ان يستقلّ بالعمل ، فلزمه اذاً ان يلتحق بذاك الجيش المشترك . ومهما يكن من امر فان النزاع الدائم بين امراء التركمان (راجع « المشرق » ١٩٤–١٩٥) كان ينافي الاتفاق الوثيق . راجع ابن الاثير (*H. Or.* I, 194) وهو يلقي على كربغا تبعة ذاك الخلاف .

٤) وذلك نحو السنة ٤٨٩ (٣١ كانون الاول ١٠٩٥ – ١٩ كانون الاول ١٠٩٦) على الارجح . اطلب Weil, *Gesch.* III, 163, 2

٥) في السنة ٤٨٢ (١٦ اذار ١٠٨٩ – ٦ اذار ١٠٩٠) تقدّمت الجيوش المصرية

ان ابن الاثير يتهمهم صراحةً بانهم دعوا الافرنج « الى الخروج الى الشام. »[1] ومهما يكن من امر فاننا نرى وفودهم في جيش الفرنج امام انطاكية[2].

ج – العرب

لم يكن في ايدي العرب ، ذاك الزمن ، الا مناطق صغيرة تكاد لا تذكر في تلك الدولة السلجوقية الباسطة سلطتها على سورية الشمالية بكاملها . وكان يمثلهم بنو كلاب ، وبنو عقيل . وكان لامير بني كلاب ، وثّاب بن محمود ، بعض المواقع في الجزيرة ، احتلّها منذ طرده من حلب[3] . وكان متحدًا مع رضوان . وقد حارب في جيشه في السنة ٤٨٨[4] . فكان ان انتسابه الى العرب ، واتحاده مع رضوان جعلاه غير مرغوب فيه في نظر تركمان حمص ودمشق.

اما بنو عقيل فكانوا يسيطرون على الرقة وقلعة جعبر . وليس ما يثبت لنا انّ اميرهم شمس الدولة سليم بن مالك بن بدران كان في جيش كربغا . بيد اننا نظنّ ذلك.

د – الروم

لما اخذ سليمان بن قطلميش انطاكية في السنة ٤٧٧ ، كان فيلاريتوس لا

فاستعادت صور ، وصيدا ، وجبيل ، وعكا (ابن الاثير ١٠ : ١١٦–١١٧) وقد اخضعت صور بعد ان خنقت ثورتها بشدّة وقسوة (ابن الاثير ١٠ : ١٥٢) في السنة ٤٨٦ (١ شباط ١٠٩٣ – ٢١ كانون الثاني ١٠٩٤) . راجع ايضاً Et. Quatremère, *Mémoires historiques et géographiques sur l'Egypte*. Paris, 1811, p. 482-486

١) وهذا قوله : « قيل ان اصحاب مصر من الملوبين لما رأوا قوّة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام الى غزة ولم يبقَ بينهم وبين مصر ولاية تمنعهم من دخول الافرنج الى مصر وحصرها خافوا فارسلوا الى الفرنج يدعوهم الى الخروج الى الشام . » (*H. Or.* I, 191)

٢) اطلب H. Hagenmayer, *Chronologie de la 1re Croisade*, N^os 234-245 (ROL IV [1898] 536, 596)

٣) ابن الاثير ١٠ : ٧٤ مكرّر

٤) ابن الاثير ١٠ : ١٦٧ . كان وثّاب يترل ، في آخر حياته ، قلعة عيان ، وفيها مات . اطلب الصفدي : مخطوطته في مكتبة تونس رقم ٤٨٥١ ب ، الورقة ٤٥ ثقا.

يزال صاحب السيادة في حصن زياد والرها[1] . الا انه لم يلبث ان فقد حصن زياد لعجزه عن تموينه . ثم تقدّم ملكشاه فنزع منه الرها ، بعد ان كان قد تركها بين يديه ، واعطاها للامير بوزان[2]. ثم ان بوزان نفسه قُتل في معركة بينه وبين تتش سنة ٤٨٧ (٢١ كانون الثاني ١٠٩٤ – ١١ كانون الثاني ١٠٩٥)[3]. ولم تكن الرها قد خضعت خضوعاً تاماً للمسلمين ، بل كانت لا تزال على شيء من الاستقلال الداخلي ، مع دفعها الجزية للمسلمين بدليل انه كان لا يزال فيها امير روماني اسمه طوروس ، وهو الذي استقبل بغدوين وتبنّاه[4] . وكان لا ولد له ، فشاء ان يجعل خليفةً في امارته ، فضلًا عن كونه رأى في هذا التبني افضل واسطة ليستقلّ تماماً عن المسلمين . ومعلومٌ ما كان من نصيب طوروس ، وما اظهره بغدوين من نكران الجميل لمن تبنّاه .

وهكذا تظهر لنا سورية مجموعةً من الامارات المتناقسة ، والمقاطعات المتدابرة ، بل المتهالكة في سبيل اضعاف بعضها البعض الآخر . فلا عجب اذا ان يكون رأى فيها الفرنج ارضاً صالحةً يستغلّون فيها تلك المنازعات الداخلية .

وقائع نور الدين في سورية الشمالية

اطلعتنا الصفحات السابقة على ما كان يقوم به البيزنطيون ، ثم الصليبيون ، من غزوات في مناطق سورية كانت في اكثرها تُسفر عن انتصارات باهرة . وكان من اسباب ذلك انقسام امراء سورية بعضهم على بعض . وسنرى الآن كيف توفق احد كبار القواد الى جمع الكلمة حوله ، فالى مقاومة التيار الفرنجي

---

١) ابن الاثير : *H. Or.* I, 244

٢) ابن الاثير (Tornberg) ١٠ : ٨٧ ، في السنة ٤٧٩

٣) ابن الاثير ١٠ : ١٠٨

٤) تاريخ متى الرهاوي ... *H. Arm.* I, 35 ، وهناك ذكر بعض المصادر . وايراجع ايضاً Guibert de Nogent, *H. Occ.* IV, 165 وفيه وصف غريب لطريقة التبني :

« Adoptionis autem talis pro gentis consuetudine dicitur fuisse modus. Intra limen interulam quam nos vocamus camisiam, nudum intrare eum faciens sibi adstrinxit et haec omnia osculo libato firmavit; idem et mulier post nudum fecit. »

مقاومةً ادّت الى نجاح لا يُنكر . وقد فضلتُ اختيار مثل نور الدين على صلاح الدين ، لانه اقلّ شهرة . وفضلًا عن ذلك ، فان المؤرخ لا يفهم سرّ اضمحلال مملكة اورشليم اللاتينية في معركة حطين (تموز ١١٨٧) ، الا اذا اعتبر ذاك الاضمحلال نهاية نزاع طويل بدأت مظاهره في سقوط كونتية الرها على يد نور الدين .

توفي زنكي في شهر ربيع الثاني سنة ٥٤١ (١٠ ايلول — ٩ تشرين الاول ١١٤٦) ، وكانت ممتلكاته تنبسط من الموصل الى حلب بما فيها مدينة الرها التي كانت قد عادت فخضعت للسلطة الاسلامية[١] . فاقتسم ولداه هذا الملك ، فنال سيف الدين منطقة الموصل ، ونور الدين منطقة حلب . اما الرها فاستدعت اليها جوسلّن[٢] . وعادت بعلبك فخضعت لدمشق[٣] .

ا — هجوم نور الدين على ممتلكات الفرنجة في الرها وانطاكية

اسرع نور الدين الى الرها ، فاخمد ثورتها . فهرب جوسلّن الى تلّ باشر (Turbessel) . ولم يبقَ من الكونتية الا المواقع الكائنة غربي الفرات ، ما عدا البيرة[٤] . وفي السنة التالية اي ٥٤٢ (٢ حزيران ١١٤٧—٢٢ ايار ١١٤٨) وجّه نور الدين جيوشه جهة امارة انطاكية فانتزع ارتاح[٥] . فاضطربت انطاكية ، اذ شعرت بقرب العدوّ ، ولم تكن ارتاح الا على نحو ثلاثين كيلومترًا منها .

وفي السنة ٥٤٣ (١١٤٨) كان نور الدين قد جمع جيوشه للمدافعة عن دمشق[٦] ، فقادها الى غزوة جهات انطاكية ولكنه لم يتوفق ، اذ تصدّى له

---

١) في ١٦ جمادى الثاني ٥٣٩ = ١٤ كانون الاول ١١٤٤ ؛ ابن الاثير *H. Or.* I, 443

٢) ابن الاثير *H. Or.* I, 457

٣) ابن الاثير *H. Or.* I, 459

٤) ابن الاثير *H. Or.* I, 445 : احتل الاتابك سروج وغيرها من ممتلكات الفرنج شرقي الفرات .

٥) ابو شامة : كتاب الروضتين *H. Or.* IV ؛ ابن الاثير ، ٤٦١

٦) لا يخفى ان سقوط الرها كان من الاسباب التي دفعت الى تسيير الرحلة الصليبية الثانية ، وتقدّمها نحو دمشق . الا انها لم تنجح في هجومها على المدينة (٦ ربيع الاول ٥٤٣ = ٢٥ تموز ١١٤٨)

جوسلّن وكسره في ضواحي افامية[1].

على ان السنة التالية كانت اوفر عائدة على نور الدين. فانتصر على الفرنج في إرْتَب انتصارًا باهرًا، وذلك في ٢١ صفر ٥٤٤ (٢٩ حزيران ١١٤٩). وقد اسفرت تلك المعركة عن قتل ريمند، امير انطاكية[2]، وفي السنة نفسها دخل نور الدين افامية[3].

في ٥ محرّم من السنة التالية ٥٤٥ (٥ ايار ١١٥٠) وقع جوسلّن اسيرًا في قبضة نور الدين[4]، فكان آخر العهد بكونتية الرها. ولم ينتشر هذا الخبر حتى مشى مسعود بن قليج ارسلان على ممتلكات الفرنجة نحو الجنوب. وكان قد استفاد من مقتل ريمون في السنة السابقة، فانتزع من جوسلّن بضعة مراكز منها مرعش، وكركر؛ وحاصر جوسلّن نفسه في تل باشر، ولكن هذا هادنه على مبلغ من المال[5]. اما هذه السنة فقد تقدم مسعود، وانتزع كيسوم، وبهسنة؛ واتفق مع نور الدين على حصار تلّ باشر، ولكنه لم ينجح[6]. بينما كان نور الدين ماضيًا في زحفه ينتزع المراكز بعد المراكز حتى لم يبقَ من الكونتية الا مواقع معدودة منها تل باشر، وروندان، والبيرة، وسيسة. عند ذلك خشي بغدوين ان يعجز عن المحافظة على ما بقي له من الحصون، فسلّمها للبيزنطيين[7]. فاسرع نور الدين في الاستيلاء عليها واقتسم المنطقة بينه

---

١) ابن شامة H. Or. IV, 60

٢) ابن شامة H. Or. 62-63

٣) ملخص من قول ابي شامة. اما ابن الاثير فيعين للحادث سنة ٥٤٥ (H. Or. I, 478)

٤) ابن شامة H. Or. IV, 67؛ قابل بابن الاثير H. Or. I, 480

٥) راجع ما تقدّم ذكره من المصادر، ثم: Roehricht, *Geschichte der Kœnigreiches Jerusalem*, 266

٦) وذلك في رجب ٥٤٥ (٢٤ تشرين الاول – ٢٣ تشرين الثاني ١١٥٠). راجع H. Or. IV, 67-68. اما ابن شدّاد («المشرق» ٢١١-٢١٢) فيذكر ان مسعودًا اخذ دلوك في السنة ٥٤٤

٧) كان بغدوين الثالث، ملك اورشليم، يتولى حكم انطاكية منتظرًا ان يبلغ بوهيمند الثالث رشده. ولكن لما تزوّج ريتولد دي شاتيلون كونتسية، سنة ١١٥٣، تنحّى له عن الحكم.

وبين مسعود ، ومُحي من الوجود ذكر كونتية الرها .

ب – وقائع نور الدين مع سلطنة الروم

على اثر اقتسام المناطق التي كان يملكها مسعود نال ابنه قليج ارسلان سلطنة الروم[1] . فاستفاد نور الدين من الاضطراب اللازم لكل انتقال في السلطنة ، وهجم على اراضي قليج ، فانتزع منها عينتاب[2] . ثم بعد ان احتلّ دمشق (٢٦ نيسان ١١٥٤) عاد الى ارض السلطنة فانتزع منها دلوك ، وروعبان ، وكيسوم . فعتب عليه الامراء وذكّروه عهده للسلطان مسعود ، فردّها[3] . واقام ينتظر مدة طويلة يتابع تدخلاته في شؤون السلطنة . حتى كانت السنة ٥٦٨ (١١٧٢–١١٧٣) فنزع قليج ارسلان ممتلكات ذي النون بن دنشمند ، صاحب سيواس وسميسة . فاستغاث هذا بنور الدين . فزحف نور الدين على بلاد قليج ، وملك نهائيًا رعبان ، ودلوك ، وسرعش ، وبهسنة[4] . فعادت سلطنة الروم الى حدودها الاصلية ، اي الى الحدود التي كانت لمملكة مسعود قبل توسّعه بما اجتلّه من اراضي كونتية الرها .

ج – وقائع نور الدين مع امارة انطاكية

كانت القلعة الاخيرة التي توقف نور الدين في طريقه الى انطاكية قلعة حارم ، فاخذ يحاول اخضاعها حتى نجح في السنة ٥٥٩ ؛ فدخلها ، على اثر معركة

---

١) يظهر ان السلطان مسعودًا قسم ممتلكاته في حياته . وقد يكون حصل ذلك سنة ٥٦٧ (نيسان ١١٥٢ – آذار ١١٥٣) . وهي السنة التي يعيّن فيها اسامة بن منقذ وفاة السلطان مسعود (راجع Roehricht, *op. cit*, 281) على ان de Zambaur, *Manuel de chronologie* يعيّن لوفاة مسعود السنة ٥٥١ ، ولعله الارجح .

٢) في السنة ٥٦٨ (آذار ١١٥٣ – آذار ١١٥٤) راجع Roehricht, 281 ، بناء على روايتي ابن الاثير وابي الفرج .

٣) وذلك في السنة ٥٥٠ (٧ آذار ١١٥٥ – ٢٥ شباط ١١٥٦) ، وقد انفرد ابن شدّاد بذكر غزوة في هذه السنة (المشرق ، ٢١٠) .

٤) هي السنة التي يذكرها كمال الدين (*ROL*, 1895, p. 554) ، وابن الاثير (*H. Or.* I, 591) اما ابن شدّاد فيعيّن لذلك السنة ٥٥٤ (٢٣ كانون الثاني ١١٥٩ – ١٢ كانون الثاني ١١٦٠) .

شديدة أسر فيها بوهيمند الثالث ، امير انطاكية[1] . فلم يبقَ ما يمنع نور الدين من السير على انطاكية . على انه اظهر من الحكمة والرصانة ما لم يظهره اعداؤه من قوّاد الزحفة الصليبية الثانية ، اذ اسرعوا في الهجوم على دمشق ، فلاقوا الفشل ؛ فلم يسرع في الزحف على انطاكية ، بل تركها مستقلة ، عاجزة عن ازعاجه . وذلك انه كان يخشى ، اذا مشى عليها ، ان يستغيث اصحابها بمانويل كومنين[2] .

توفي نور الدين سنة ١١٧٤ ، بعد ان حمل على الفرنج حملات قويّة وزعزع فيها موقفهم في الشرق . فانتزع المناطق العديدة من ايديهم . نجح في مصر ، فلاشى سلطة أموري ، فاستقرّت سلطة صلاح الدين ؛ ونجح في سورية فوحّد كلمة الامراء المسلمين فيها ، وانتزع كثيراً من الامارات اللاتينية . فمهّد السبيل ، في كل هذا ، لصلاح الدين ، وهيأ له طرق الانتصار — وقد حقّ لمؤرخي الاسلام ان يظهروا عليه الأسف ، ويغدقوا المدح والثناء .

لاون الثاني الارمني ومعضلة انطاكية

رأينا ما كان من قيام امراء الاسلام على الفرنجة من كل جهة ، وما كان من انتصاراتهم المتتابعة . على ان كل هذه الاخطار الخارجية ما كانت لتهيب بامراء النصارى الى الاتحاد والتآلف ، بل الى خلق كافٍ ليضمن لهم مقاومة الاعداء . وافضل مثال على هذا الانشقاق الداخلي العقيم ما نراه في النزاع الطويل بين لاون الثاني الارمني وامراء انطاكية . وهو آخر الاقسام المهمة في تاريخ عزّ الدين بن شدّاد . وسنجتهد بتلخيص اسباب هذا النزاع ، وتطوراته ، وكيف

---

١) في ١٠ آب ١١٦٨ . وهو التاريخ الذي يذكره ابن الاثير . وليس من اتفاق بين المصدرين الاساسيّين لتاريخ نور الدين . راجع ابن الاثير ٥٤٠ — ٥٣٧ *H. Or.* I, 477, 501, 537 وابا شامة *H. Or.*, IV, 83, 85, 105, 126

٢) وانا نشير هنا الى تلك الخلة بدخول مانويل كومنين انطاكية في عيد الفصح ١١٥٩ والى اقترانه بماري الانطاكية ابنة ريموند ، في كنيسة القديسة صوفيا ، نهار عيد الميلاد من سنة ١١٦١

انتهى به الحل[1].

أ - اسباب النزاع

لم تكن العلاقات بين إمارة انطاكية ومملكة سيس الارمنية على نصيب من الصفاء الدائم . فانه على اثر وفاة مانويل كومنين في السنة ١١٨٠ ، هجم روبين الثالث، صاحب سيس، على مناطق الروم، فانتزع منها طرسوس ومامشترا فنازعه هيطوم ، صاحب لامبرون ، وصديق الروم المخلص . فشى روبين ، سنة ١١٨٣ ، على بلاد هيطوم . فما كان من هذا الا ان لجأ الى معونة بوهيمند ، امير انطاكية . وكان هذا على قسطٍ من الدهاء ، فاحتال حتى اوقع روبين في شركٍ واخذه اسيرًا . فخلفه اخوه لاون على حرب لامبرون واضطرَّ صاحبها هيطوم الى ان يطلب من بوهيمند اخلاء سبيل الاسير . فرضي بوهيمند باخلاء سبيل روبين ، على شرط ان يوسّع مناطق امارته حتى جيحون[2].

وكان من انتقام الامير الارمني ان هجم على ارض بوهيمند فاحتلَّ بَغراس[3] ، واخذ يهدّد انطاكية.

وفي ٢١ شوّال ٥٨٨ (٣٠ تشرين الاول ١١٩٢) ، كان صلاح الدين يستقبل، في بيروت، بوهيمند الثالث ، امير انطاكية ، آتيًا للمصافاة والصلح . وكان ذاك الاستقبال على غاية من الودّ ، وقد أخذ صلاح الدين بالثقة التي اظهرها ضيفه ، اذ اتى اليه دون ان يطلب « الامان » . فدخل واثقًا بعدل

---

١) يمكن الرجوع في هذا البحث الى M. Alishan et G. Bayan, *Léon le Magnifique, premier roi de Sissouan ou de l'Arméno-Cilicie*, Venise, 1888, ch. VI, p. 221 وهو على قسطٍ وافر من الغموض . ثم A. Luchaire, *Innocent III. La Question d'Orient*, Paris, 1907 ، وهو لا يذكر المصادر .

٢) راجع Tchamitch, *H. Arm.* I, 394, note ، وهو يذكر ، في هذه الفترة ، « زفاف اليس ، ابنة روبين ، الى بوهيمند ، الثاني من ابناء بامب » . ولا ينقل لاون عندما يأسر بوهيمند ، في بَغراس ، عن ان يذكره أسره روبين اخاه .

٣) يذكر ابن شدّاد تاريخًا غير دقيق بشأن احتلال لاون حصن بغراس سنة ٥٨٨ . ولا شك في ان ذلك جرى قبيل زيارة بوهيمند لصلاح الدين ، التي تظهر لنا من نتائج ذاك الاحتلال .

السلطان الايوبي. واستفاد من ذلك الجوّ المفعم بروح الصداقة « فشكا للسلطان ما يقاسيه في جوار لاون ، ملك سيس ، منذ ان احتلّ هذا حصن بغراس . فوعده السلطان بما يفرح قلبه ».

بيد انه كان للاون جواسيس في بيروت ، فنقلوا اليه كل ما دار بين الاميرَين ، فجزم بان يبدأ الزحف على ارض بوهيمند[1] . فنصب شرك بغراس الذي نجح كل النجاح ثم حاول هجمةً على انطاكية لم تنجح[2]. على ان بوهيمند ظلّ اسيره حتى السنة ١١٩٥ . فاخذ هنري دي شمپاني يفاوض لاون بشأن اطلاقه ، على الشروط الاتية : ١ً ان ريموند ، كونت طرابلس ، وبكر بوهيمند الثالث ، امير انطاكية ، يتزوّج اليس ابنة اخ لاون الثاني . والولد الذي يثمر عنه هذا الزواج يكون وارثاً لإمارتي انطاكية وارمينية . ٢ً تعاد الحدود موقتاً ، بين الامارتين ، الى بورتيل[3] . ولا يظهر ان الكلام تناول حصن بغراس ، فبقي ظلماً في يد لاون[4].

في السنة ١١٩٨ ، توفي ريموند عن غلام ذكر دعي ريموند-روبين ، وقد اقرّ له بوهيمند الثالث بحقه في خلافته على امارة انطاكية ، وفقاً لما تنصّ عليه معاهدة سنة ١١٩٥ المذكورة[5]. الا ان بوهيمند الرابع ، اخا ريموند المتوفى ، لم يرضَ بان يرى نفسه محروماً من الامارة ، فعمل على اقصاء ابيه الشيخ عن الحكم ، ونادى بنفسه بامير انطاكية . فخاف لاون على ابنة اخيه اليس وعلى ابنها ، فأخذهما ووضعهما في مأمن في قليقية . ومن ثمّ بدأ النزاع بين الاميرين:

---

١) اطلب *Le livre d'Eracles* (*H. Occ.* II, 107) ، وهو يتهم بذلك الخيانة امرأة بوهيمند.

٢) « المشرق » ، ص ١٩٦

٣) Sempad, *H. Arm.* I, 632 ; Eracles, *H. Occ.* II, 212 (D) et 215 (B); Tchamitch, H. *Arm.* I, 394

٤) كان من الحق ان يعود حصن بغراس الى إمارة انطاكية ، لانه واقع في منطقتها التي حُدّدت مجدّداً ، او الى فرسان الهيكل ، اوه التامپليين »، اصحابه السابقين. ولكن هؤلاء كانوا من اصدقاء بوهيمند.

٥) اطلب *M. L.*, 214, col. 810-811

الانطاكي والارمني.

ب – تطوّر النزاع

وكان لاون قد تناول تاج الملك ، في آن واحد ، من الامبراطور الروماني المنفصل عن رومة، ومن البابا نفسه[1]. ففكر بانه قد يؤكد النجاح في حملته على إمارة انطاكية ، اذا جعل البابا يتدخل بتلك الشؤون ، فرفع اليه النزاع ، طالباً حكمه[2]. وفي الوقت نفسه قام التامبلية يحتجون ، في البلاط البابوي، على ملك ارمينية ويطلبون ان يرجع اليهم حصن بَغراس . وفي ايديهم رسالة وقعها البابا اينوشنسيوس الثالث قبل السنة ١٢٠١ ، ووجّهها الى لاون بارجاع الحصن المذكور[3].

اما في شأن النزاع بين ارمينية وانطاكية ، فقد اجاب اينوشنسيوس الثالث بانه عهد الى موفديه في درس ذلك المشكل وفي حلّه . وسيسافر الموفدون مع الحملة الجديدة[4].

ولكن لاون لم ينتظر وصول الوفد . فلم يكد يعرف بوفاة بوهيمند الثالث سنة ١٢٠١ [5] ، حتى هجم مسلحاً على انطاكية . وكان بوهيمند الرابع قد جمع رجاله فقاومه . وارسل فطلب معونة ركن الدين سليمان ، سلطان

١) كان لاون الارمني يلقب على الحبلين مرضياً اللاتين واليونان ، او غاشاً كلًّا من الفريقين . اطلب Guiragos de Kantzag, *H. Arm.*, I, 423 . وكان اللاتين ، قبل مسحه ملكاً ، قد جابوا منه ادخال اصلاحات طقسية ثلاثة تتعلّق بالاحتفال ببعض الاعياد ، وتلاوة الفرض ، والقطاعة في بيرمون الميلاد والفصح. فرفض الاساقفة الارمن . فخفّف لاون من حدّتهم قائلا : « لا تخافوا ، سأرضي اللاتين بالمضرع الهارجي فقط ». – وقد حضر بطريرك طرسوس اليوناني حفلة تتويج لاون (قابل بما ذكر Sempad, *H. Arm.* I, 633) ، وفي السنة ١١٩٧ ارسل لاون الى عكا وفداً يطلب التاج الذي اعطاه هنري السادس ، وهو الذي كان قد طلبه لاون من البابا سنة ١١٩٥ . وفي الوقت نفسه ارسل لاون الى القسطنطينية وفداً آخر يؤكد للامبراطور « وفاءه واخلاصه ».

٢) اطلب *M. L.*, 214, col. 810-812

٣) *M. L.*, 214, col. 819-820

٤) *M. L.*, 214, 813-814 (XVI kal. Januarii 1199)

٥) *Archives de l'Orient Latin. Annales de Terre Sainte*, II, ii, 434

الروم ، فاضطر لاون الى الرجوع عن انطاكيـة . ولم يخجل ان يكتب الى البابا اينوشنسيوس الثالث بانه ترك كل الاعمال الحربية « حباً للبابا »[1].

اول بعثة بابوية

فاجاب البابا لاون مخبرًا بانجـاز البعثة التي من شأنهـا ان تحكم في النزاع بينه وبين كونت طرابلس (اي بوهيمند الرابع المطالب بامارة انطاكية)[2] وكانت البعثة مؤلفة من الكردينال سوفريد الحامل لقب القديسة پراكسيد ، والكردينال بطرس، الحامل لقب القديسة سوسان. وقد ترك كلٌّ منهـا تقريرًا ضافياً عن عملهما ، هذه خلاصته :

طلب سوفريد الى طرابلس كلًّا من الاميرين المتنازعين ، في شتاء السنة ١٢٠٢ — ١٢٠٣ . فجاءها بوهيمند الرابع للنظر في بعض شؤونه ، ولكنه لم يتنازل لمقـابلة سوفريد ، ولا اراد ان يتصل به حتى بواسطة غيره[3]. فعاد سوفريد الى عكا. على انه نزولًا عند رغبة ملك اورشليم ، وريّس التابلية ، وكثير من امراء الفرنج ، ركب البحر جهة انطاكية . فحضر الى مواجهته ، ملك ارمينية ؛ ولا يقول هل حضر بوهيمند ام لا . لكننـا نستنتج انه لم يحضر، لما ظهر منه سابقاً من الانصراف عن سوفريد. على ان حاشية الكردينال كانت مائلةً كل الميل الى كونت طرابلس. حتى ان سوفريد نفسه ، على مـا ظهر له من حقّ ملك ارمينية ، لم يتمكن من انالته مبتغاه . فانسحب متأثرًا آسفاً الى حصن المرقب.

وكان الكردينال بطرس قد وصل عكا في صيف السنة ١٢٠٣ ، آملًا ان يرافقه النجاح ، فيكون اسعد حظًّا من زميله . فكان اولَ ما قام به انه اتى انطاكية ، وجرّب حلولًا ثلاثة : اولها حلّ حبي بين المتنـازعين ؛ فلم ينجح فلجأ الى المفاوضات ، وعرض عليهما اقتراحاً مآله ان « الفريقين المتنازعين يتركان له وللسيد الكردينال (سوفريد) ، ان يتفقا ويحكما حسب العـدل

(١) كتب من سيس بتاريخ تشرين الاول ١٢٠١ *M. L.*, 214, col. 1003-1006

(٢) *Gesta*, CLI-CLIX وقابل بما في *M. L.*, 214, col. 1007

(٣) *Gesta, l. cit.*

والانصاف » ، فلم يلاقِ هذا الاقتراح قبولاً . اخيراً اعلن انه مستعدّ للفصل بين المتنازعين اذا رفعا اليه دعواهما . ولكن لم يتقدّم احد بدعواه . عندئذٍ « ظهر من الفريقين مشاحنات كثيرة ، وكلمات يطول بنا سردها » ، فانسحب الكردينال بطرس الى عكا ، بعد ان حرّم على المتنازعين ان يلجأ الى الحرب . ثم ارسل اليهما من عكا طلباً بالحضور الى محكمته ، والّا فانه يحربهما . اما ملك ارمينية فاجاب . واما كونت طرابلس ، فلم يجب ولم يعيّن احداً موفداً عنه . على ان الكردينالَين لم يعلنا حرمه واكتفيا بان صرّحا بعدم تمكنهما متابعة تلك القضية ، لاضطرارهما الى السفر نحو القسطنطينية ، وعليهما فيها واجبات بشأن معونة زوّار الارض المقدسة[1] .

وبين قرار الكردينال سوفريد ، وقرار الكردينال بطرس ، يجب ان نذكر ، في عيد القديس مارتين سنة ١٢٠٣ ، غزوة قام بها لاون على انطاكية . فردّه عنها الملك الظاهر ، سلطان حلب . وكان التامبلية يسندون حزب بوهيمند[2] . فانتقم منهم لاون بان انتزع ممتلكاتهم في ارمينية واشهرها : لاروش غليوم ، ولاروش روسول ، واصابهم بكثير من الاضرار[3] . فكان من نتيجة ذلك انه رُشق بالحرم . ولكنه عاد فتصالح مع البعثة البابوية في عكا ، في ايلول ١٢٠٤ ، عندما ارسل الكردينال بطرس فدعا المتنازعين الى محكمته .

وفي محرّم ٦٠١ (٢٩ آب — ٢٨ ايلول ١٢٠٤) ، نرى لاون من جديد يحاصر انطاكية ، فيصدّه عنها الملك الظاهر مرةً ثانية[4] .

---

١) *Gesta. Inn. III, M. L.*, 214, col. CLVI sq.

٢) راجع *Am. Terr. Sainte* dans *Arch. Or. Latin*, II, ii, 435 وقابل بما في *M. L.*, 215, col. 687-689 ، ورد المشرق » ، ص ٢٠١

٣) *M. L.*, 215, col. 504 ، وليس من تاريخ لرسالة ايوشنيوس الثالث التي يلوم بها لاون على هذه التعديات . اطلب Rey *R.O.L* IV, 387 ، وهو يميل الى تأريخها في ١٢٠٧ (كذا ، ص ٢٢٥) . اما مؤرّخو الصليبيين فلم يتعرّضوا لذكر هذا الحادث .

٤) كمال الدين *R.O.L.*, V (1897), p. 41

البعثة البابوية الثانية

عندما تحقق لاون ، كل ما يجابهه من الصعوبات في سبيل الوصول الى انطاكية عنوةً ، اخذ يحاول حلًا سلمياً جديداً ، فكتب الى البابا ، يطلب اليه بكل احترام ان يعيد ، في حلّ ذاك النزاع ، الى « قضاة فوق الظنون »[1] . وذلك بعد ان سرد له ملخّص الحوادث ، على طريقة توافقه طبعاً .

فاجاب اينوشنسيوس الثالث بتعيين قضاة جدد[2] . ولا نعلم هل قدمت هذه البعثة الى الشرق ام لا . الا اننا نتحقق ان لاون عاد الى الحرب في جمادى الاولى سنة ٦٠٢ (١٤ كانون الاول ١٢٠٥ - ١٣ كانون الثاني ١٢٠٦)[3] . ولكنه لم يتوفق هذه المرّة ايضاً ، فتشلت مساعيه ، واضطرّه الملك الظاهر ، الى عقد معاهدة مدّتها ثماني سنوات ، يمتنع فيها عن كل محاولة في سبيل فتح انطاكية[4] .

- ثورة العامّة في انطاكية

ولا نعلم هل كان للاون ضلع في هياج الثورة في انطاكية سنة ١٢٠٧[5] . ولا يفيدنا ابن شدّاد شيئاً واضحاً في الموضوع . على انه يذكر بطريقاً هيّج حركة ثورية ، فقُتل ونحن نعرف ان بوهيمند كان قد نصب في انطاكية بطريقاً من الروم المنفصلين ، اسمه سمعان الثالث يوليانس[6] . فلا غرابة بان يكون قد عمد الى الانتقام من لاون ، لتدخّله بشؤون الإمارة ، فاستدعى سلطان الروم كيكواس الاول من قليقية ، راميًا في ذلك ، الى شغل لاون ، وصرفه عن

---

١) *M. L.*, 215, col. 687-692

٢) *M. L.*, 215, col. 557-559 (VI Nonas Martii 1205)

٣) كمال الدين ، *R.O.L.*, V, 43

٤) كمال الدين : المحلّ نفسه .

٥) *Ann. de Terre Sainte, Or. Lat.*, II, ii, 436 ، ولا يميز هذا المصدر بين توقيف البطريق ، وسنة وفاته . قابل بما في *M. L.*, 215, col. 1321-1323, Fev. 1207 ؛ *His. Occ.*, II, 313-314

٦) راجع Rey. *Les dignitaires de la principauté d'Antioche*, *R.O.L.* VIII, (1900-1901), p. 137, 149

الهجوم على انطاكية . الا ان لاون سيّر الملك العادل ، وهو اقوى السلاجقة ، فاضطر كيكواس الى عقد الصلح . وكان من شروط هذا الصلح ان لاون يترك انطاكية وشأنها ، ويُعيد حصن بَغراس الى التامبلية[1] .

ومن المعلوم ما اتصف به موقف اينوشنسيوس الثالث من الحزم في هذه الحادثة . فانه احتجّ بشدّة على حبس بطرس الاول دانغوليم ، بطريرك انطاكية اللاتيني ، وسفّه تعدّيات يوهيمند التي سبّبت وفاته ، وانتهى بان حرم يوهيمند[2] .

البعثة البابوية الثالثة

وكان من نصيب لاون ان يستفيد من موقف يوهيمند الحرج على اثر وفاة البطريرك اللاتيني ، فيطلب من الحبر الاعظم ان يتدخل بذاك النزاع ، للمرّة الثالثة . فارسل وفداً الى رومة . فاجابه البابا بانه يعهد ، للمرّة الثالثة ، الى وفد خاص ، يحلّ ذاك المشكل[3] . ولا نعلم شيئاً عن اعمال هذه البعثة . ومهما يكن من امر فان لاون لم يرضَ بها . وذلك اننا نراه يعود الى طرق ابواب رومة ، فيطلب بواسطة موفديه ، تأليف لجنة بابوية جديدة .

وقد وقع اختيار البابا ، هذه المرّة ، على سيكار ، اسقف كريمونه ، فكلّفه درس النزاع وحلّه ، وفي غيابه يعود الحق لبطاركة انطاكية ، فيحكم ان يحكموا ، وينفّذوا حكمهم بقوّة الحرم[4] . ولكن لاون لم يحضر المحاكمة ، بل عاد الى الاعمال الحربية فاحتلّ بور يونيل من اوض التامبلية ، على حدود ارمينية ، واخذ يكتسح سائر ممتلكاتهم ، حتى تلك التي كانت تعطيه وارداتها . فتفاقم بعمله الخطب ، ولم يبقَ في وسع البابا ان لا يحرمه ، فرشقه

---

١) كمال الدين : ك . م . ٤٥ ، في السنة ٦٠٥ (١٦ تموز ١٢٠٨ - ٦ تموز ١٢٠٩)

٢) *M. L.*, 215, col. 1345 et 1428-29

٣) *M. L.*, 216,54-56 (II nonas Jun. 1209) ، والراجح ان هذه البعثة لم تأتِ الشرق ، لان بعثة سيكار (Sicard) ، تمت بعد هذا التاريخ بزمن قليل ولعل البابا قد اشار الى بعثة سيكار في جوابه المذكور .

٤) *M. L.*, 216, col. 310-311 (XIII Kal. Sep. 1210)

بالحرم وامر ملك اورشليم بان يساعد التامبلية في المطالبة بحقوقهم[1] . فجهّز هؤلاء جيشاً ، واخذوا يزحفون على ارض لاون . فارجع اليهم حصن بغراس[2] .

ج – حلّ النزاع : فتح انطاكية

وكانت السنون التالية احسن طالعاً على لاون . فانه لم تنتهِ تلك الهدنة ، هدنة الثماني سنوات ، التي عقدها مع الملك الظاهر ، وكان من شروطها انه لا يحاول هجوماً على انطاكية ؛ حتى اخذ يعيث في اراضيها فوجّه اليه البابا الملام[3] .

ولما كانت قضية النزاع لا تزال معلّقة في المحكمة الاكليريكية ، اراد لاون ان يتظاهر بالخضوع هذه المرّة . الا ان بوهيمند لم يحضر المحاكمة[4] . وصرّح انه لا يتطلّق منذ اليوم الا بامبراطور الروم وحده . فزاد المشكل تعقّداً حتى ظهر حلّه مستحيلاً .

بيدَ ان لاون وجد طريق الحلّ . وذلك انه عمل على ازدياد افراد حزبه في انطاكية ، ثم ارسل اليها قسماً من اتباعه ، حتى اذا بلغوا عدداً مهماً ، دخل المدينة ، دون حرب ولا مقاومة ، في ١٢ شباط ١٢١٧ . فانتهى ذاك النزاع المستطيل .

النتيجة

لا شكّ في ان المطالعين الكرام ، وقد قرأوا نصّ « الاعلاق » وتعليقنا عليه ، قدروا قيمة ابن شدّاد التاريخية . ولا يضيره ما هناك من انحطام واضطرابات لا يخلو منها تأليف من هذا النوع . على ان ما يجعل له ميزة خاصة تلك الدقائق التاريخية المفيدة التي يودعها معلوماته ، ولاسيما ما اختصّ منها

(١) M. L., 216, col. 430-431 (XV Kal. Junii 1211)
(٢) Eracles, H. Occ., II, 317
(٣) M. L., 216, 781-786
(٤) M. L., 216, 792-793

بالزمن القصير الذي كان فيه شاهد عيان.

ولربَّ سائل يسأل لماذا اهتممت بفصل قليل الاهمية « كالعواصم » ، بالنسبة الى ما هناك في تأليف ابن شدّاد من فصول تدل على مقدرته في الخطط كوصفه مدينة حلب مثلاً . فأجيبه ، بكل بساطة ، ان وصف مدينة حلب منقول بالحرف تقريباً الى كتاب ابن الشحنة « الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب » ، ما عدا الفصلين المختصّين بجوامع حلب ومدارسها ، فانهما ملخّصان في الكتاب المذكور . ولا يزيد ابن الشحنة على ذلك الا أخطاء في القراءة ، وبعض التقديم والتأخير ، وزيادات اخذها عن ابن خطيب الناصرية وابي درّ . ولا يخفى ان نشر وصف حلب هذا عمل سهل سوف لا يتأخر طويلاً.

ولهذا رأيت ان انشر من « الاعلاق » ، ما كان اقلّ شهرةً ، واصعب منالاً . ولعلّي وُفقتُ في شيء من ذلك !